الفصل الرابع
التفسير العلمى للقرآن الكريم

أولاً: المراحل المختلفة لتفسير القرآن الكريم:

(أ) المرحلة الأولى: التفسير المأثور عن النبى ﷺ

وهذا التفسير شمل كل ما جاء بالقرآن الكريم من عبارات ومعاملات ومعتقدات، وذلك من خلال الأحاديث النبوية المتواترة بالسند الصحيح، ولذلك كانت السنة النبوية خير مفسر لهذه الأمور الدينية.

(ب) المرحلة الثانية: التفسير المأثور عن الصحابة وتابعيهم:

ولقد اهتم هؤلاء بالأمور الفقهية ولم ينشغلوا بالحقائق الكونية وأسرارها ونواميسها، ولم يفكروا فيها نظراً لضحالة المستوى العلمى فى ذلك الوقت وكانت أدواتهم فى منهج تفسير القرآن هى:

- تفسير القرآن الكريم بالقرآن.
- التفسير بالسنة النبوية الشريفة.
- التفسير اللغوى والبلاغى.
- التفسير الاجتهادى.

وكان من أعلام هؤلاء عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب والسيدة عائشة أم المؤمنين وغيرهم من الخلفاء والصحابة والتابعين. إلا أن هناك أوجها للضعف فى هذه المرحلة أوجزها الشيخ الصابونى، منها نقل كثير من الأقوال المنسوبة إليهم من غير إسناد مما أدى إلى التباس الحق بالباطل ووجود بعض الخرافات والإسرائيليات التى تصطدم بالعقيدة الإسلامية والتى قام الدليل على بطلانها.

(جـ) المرحلة الثالثة: التفسير بمقتضى اللغة

ويتوقف هذا النوع على أمور لابد منها؛ كبيان مدلولات الألفاظ والنحو لتفسير الإعراب والصرف وعلوم البلاغة مثل المعانى والبيان والبديع. وترجع أهمية هذا التفسير إلى فهم اللغة العربية كأساس لفهم القرآن.

(د) المرحلة الرابعة: التفسير بالرأى

وفى هذه المرحلة انتقل العلماء من التفسير النقلى إلى التفسير العقلى فى الأمور التى تحتاج لثقافات جديدة لتمحيص المعانى واستنباط الآراء، وبدأ بذلك باب جديد للتفكر والتدبر والتأمل فى آيات الله على يد رواد أوائل مثل الإمام الطبرى والزمخشرى والرازى وغيرهم من أجيال العلماء الملتزمين بقواعد اللغة الذين فتحوا باب الاجتهاد لأئمة المذاهب الأربعة لاستنباط الأحكام، ولقد أجاز هذا التفسير بالرأى الإمام الغزالى مادام الرأى لا يخالف القرآن ولا يعارض السنة النبوية، وأما من فسر القرآن بدون علم أو فسره حسب الهوى مع الجهل بقوانين اللغة أو الشريعة أو حمل كلام الله على مذهبه الفاسد وبدعته الضالة، أو خاض فى الغيبيات فهذا سلوك مذموم وتفسير باطل وينطبق عليه قول الرسول الكريم. «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

ويرى الإمام الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) أن هذا الحديث ليس نهياً عن التفسير بالرأى والاقتصار على النقل دون العقل وترك الاستنباط والاجتهاد مما يتعارض مع دعاء الرسول لابن عباس بقوله ﷺ **«اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»**.

وقوله سبحانه: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (النساء: ٨٣)

مشيرا إلى أن لأهل العلم استنباطا ورأيا، وبذلك يرى الإمام الغزالى النهى عن الرأى الفاسد الموافق للهوى دون اجتهاد صحيح، أو الرأى المتسرع بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع فيما يتعلق بغرائب القرآن من اختصار وحذف وإضمار وتقديم وتأخير ومجاز، ويؤكد الغزالى بأن أسرار القرآن تتكشف للراسخين فى العلم بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوافر دواعيهم للتدبر، وتجردهم للطلب وزهدهم عن اللهو ورغبتهم للحياة فى نور القرآن، ومن أمثلة التفسير بالرأى المحمود من أهل السنة تفسير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى وهو تفسير موضوعى لغوى وفقهى مع الاستعانة بما عرفه من علوم فى زمانه.

ويقول الدكتور عبد المنعم النمر رحمه الله إن التفاسير كلها بالمأثور أو بالرأى أو بكليهما معا تدور كلها حول أبحاث لفظية نحوية أو بلاغية وحول روايات أغلبيتها الكبرى خرافات وإسرائيليات وأحاديث لا أصل لها. وجاء تفسير الفخر الرازى فغلبت عليه العلوم العقلية والفلسفية والفلكية، ثم تفسير الألوسى المتوفى عام ١٢٧٠ هـ جامعا لما رأى جمعه وإثباته من التفاسير السابقة حتى ظهر الشيخ محمد عبده بنضجه العقلى وانتقد التفاسير وبدأ منهجه فى الإصلاح متأثرا بمنهج أستاذه جمال الدين الأفغانى، وتعهد السيد رشيد رضا مدرسة الإمام محمد عبده فى أوائل هذا القرن الميلادى (١٩٠٠م — ١٣١٨ هـ) حتى اتسع ظلها وغيرت

مجرى التفكير الدينى فى مصر والعالم الإسلامى وظهرت تفاسير جديدة للشيخ طنطاوى جوهرى وسيد قطب، والمنتخب من مجمع البحوث الإسلامية، وخواطر الشيخ الشعراوى علاوة على اجتهادات كثيرة فى مجال الإعجاز العلمى للقرآن تم نشرها فى النصف الثانى من القرن العشرين وللمؤلف مجهود فى هذا المجال[1].

ثانيًا: التفسير الحديث للإشارات العلمية القرآنية فى عصر العلم والتكنولوجيا:

فى العصر الحديث عصر العلم والتكنولوجيا الذى تراكمت فيه المعارف الكونية وتقدمت العلوم الطبيعية وتشعبت إلى فروع وتخصصات دقيقة، قام الكثير من علماء المسلمين الكونيين بالإدلاء بخبراتهم وتأملاتهم فى آيات القرآن الكريم يوضحون ما فى إشاراتها العلمية من حقائق ومعانٍ خاصة بالكون وسنة الله تعالى فيه مما يتفق تماما مع المكتشفات العلمية الحديثة، وبدأت تنتشر مصطلحات حديثة مثل «التفسير العلمى» «الإعجاز العلمى» وهى تفيد تأويل الآيات القرآنية التى وردت بها إشارات علمية بما يتفق مع الحقائق والاكتشافات الحديثة فى العلوم الكونية.

وبدأ استقلال باب من التفسير عرف بالتفسير العلمى يجتهد فيه المفسر لاستخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية من القرآن الكريم. وأفرط البعض فى هذا الباب أو النوع من التفاسير واقتصد البعض الآخر. ورأى البعض أن القاعدة الأصلية الراسخة هى «ألا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة إلا إذا أخطأ الناس فى فهم الآية القرآنية أو جهلوا الحقيقة العلمية لأنه لا تعارض بين القرآن والعلم مطلقا».

ولقد انقسم المفسرون فى العصر الحديث إلى فريقين:

فريق يمنع التفسير العلمى للقرآن الكريم ويراه غير صحيح فى منهجه وضارًا بالدعوة الإسلامية وينحرف بالقرآن عن غايته ويندفع به إلى مجالات لا يحمد عقباها.

وفريق آخر يجيز التفسير العلمى للقرآن ويجده فتحا جديدا يساهم فى خدمة تفسير القرآن لأهل العصر الحديث، ودليلا جديدا من أدلة إعجاز القرآن الكريم يخدم نشر الدعوة الإسلامية.

والحدود ليست فاصلة بين الفريقين، وكلاهما يخشى الضلال والانحراف والتفريط عن سواء السبيل، ومن عظمة القرآن وروعته أن كل فريق يجد فيه ما يؤيد رأيه. ولما كانت حقائق الله وسنته فى الكون واحدة. فإن هذا يعنى أن خير الأمور الوسط وأن إبعاد المغالاة والتفريط

---

(١) راجع كتب المؤلف فى دار المعارف فى مجال إعجاز القرآن.

والاندفاع فى كـل رأى لابـد أن يـؤدى إلى تقـارب آراء الفريقـين للوصـول إلى الحقيقـة. ويوجـز الأستاذ المستشار/ مدحت حافظ إبراهيم[1] آراء الفريقين بعد تمحيص علمى كما يلى:

آراء المانعين للتفسير العلمى للقرآن

يكتفى المانعون للتفسـير العلمـى للقـرآن الكريـم بـالمعنى الظـاهر للإشـارات العلميـة القرآنيـة ويمنعون الدخول فيما تشير إليه هذه الإشارات من حقائق علمية. ويرون أن الدخول فـى عـرض الأفكار والنظريات والفروض والقوانين والقواعد العلمية يصرف عن الغاية الرئيسية للقرآن كبشير ونذير، ويشغل عن سبيله كهداية وصلاح للإنسان، ويرون أن فى هـذا صـدا عمـا أنـزل القـرآن لأجله. فمثلا، الفخر الرازى فيمـا أورده فـى تفسيره مـن العلـوم الطبيعيـة وغيرهـا مـن العلـوم الحادثة فى الملة على ما كانت غالبة فى عهده كالهيئة الفلكية وغيرها. وقلده بعض المعـاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآيـة فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن.

ومن المعترضين على التفسير العلمـى فـى المـاضى أبـو إسـحاق الشـاطبى المتوفـى سـنة ٧٩٠ هجرية، فهو يرى «أن كثيرا من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن، فأضافوا إليه كل علـم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظـر فيه الناظرون من أهل الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، وإضافة إلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبكلامه وما أودع فيـه ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه مـن أحكـام التكاليف وأحكام الآخرة وما إلى ذلك، ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظرة لبلغنا ما يدلنـا علـى أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القـرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا، ويـرد علـى الاسـتدلال بإجـازة التفسـير العلمـى بـالآيتين الكريمتين.

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩)

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨)

---

(١) مرجع سابق.

إن المراد هو حال التكليف والتعبيد واللوح المحفوظ وليس جميع العلوم الكونية «النقلية والعقلية».. فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالا يقتضيه، كما أنه لا يصلح أن ينكر فيه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة بما يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقوَّل على الله ورسوله فيه والله أعلم وبه التوفيق[1].

ويمكن تلخيص حجج المعارضين للتفسير العلمى فى الوقت الحاضر فى ثلاث حجج هى:

١ - الناحية اللغوية:

فكثير من الألفاظ القرآنية تغيرت وتوسعت دلالتها بمرور الزمان، وهذه المعانى كلها تقوم بلفظ واحد بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظرًا لحدوثه وطروئه على اللفظ، فهل يعقل أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن وجعلها تدل على معانٍ جدت باصطلاح حادث؟

٢ - الناحية البلاغية:

البلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال والتفسير العلمى للقرآن يضر ببلاغة القرآن لأن من خوطبوا بالقرآن فى وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعانى، وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ لأنه لم يراع حال المخاطب؟ وإن كانوا يعرفون هذه المعانى فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من ليلة نزول القرآن الذى حوى علوم الأولين والآخرين؟

٣ - الناحية الاعتقادية:

أنزل الله القرآن إلى الناس كافة حتى قيام الساعة، ولو ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شىء وجعلناه مصدرًا للعلوم لكنا بذلك قد أوقعنا الشك فى عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات لا قرار لها ولا بقاء، ولو نحن ذهبنا إلى تقصيد القرآن ما لم يقصد من نظريات ثم ظهر بطلان هذه النظريات فسوف يتزلزل اعتقاد المسلمين فى القرآن الكريم لأنه لا يجوز للقرآن أن يكذب اليوم ما صححه بالأمس.

ومن المترددين فى الاستخدام التفسير العلمى للقرآن الكريم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى، ومع ذلك فإننا نجده بعد أن نتقدم معه فى استعراض حججه وأدلته يدعو بل

---

(١) أبو إسحاق الشاطبى – الموافقات – جزء ٢ ص ٥٥ وما بعدها ص ٧٩٧ وما بعدها.

ويعرض فى منتهى البراعة والإتقان بالحجج والأدلة من الحقائق العلمية ما يوضح الكثير من الآيات القرآنية العلمية. وهذا كله يؤكد أن من يعارض التفسير العلمى يعارض فى الحقيقة المغالاة والاندفاع فى النظريات والفروض والظنون العلمية وليس الحقائق العلمية. يقول فضيلة الشيخ الشعراوى: «إن هذا أخطر ما نواجهه. ذلك أن بعض العلماء فى اندفاعهم فى التفسير وفى محاولتهم ربط القرآن بالتقدم العلمى يندفعون فى محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفه يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة. وهم فى اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة ويحاولون إثبات القرآن الكريم بالعلم.. والقرآن ليس فى حاجة إلى العلم ليثبت.. فالقرآن ليس كتاب علم.. ولكنه كتاب عبادة.. ومنهج.. ولكن الله سبحانه وتعالى فى علمه علم أنه بعد قرون من نزول هذا الكتاب الكريم سيأتى عدد من الناس ويقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم.. ولذلك وضع فى قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس، ويثبت أن عصر العلم الذى يتحدثون عنه قد بينه القرآن الكريم فى صورة حقائق الكون منذ أربعة عشر قرنا.. ولم يكتشف العقل البشرى معناها إلا فى السنوات الماضية[1]. وعلى هذا فرأى مولانا الشيخ الشعراوى متزن فى تقديرى.

ولقد سبق أن قلت إن عطاء القرآن الكريم متجدد؛ مصداقا للآية الكريمة:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

ويجب أن نتنبه إلى حرف السين فى كلمة سنريهم لأن معناها المستقبل. والمستقبل هنا لا ينتهى.. بل إن عطاءه مستمر لهذا الجيل والجيل الذى بعده.. إلى يوم القيامة. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل. ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معانى القرآن أكثر مما تحتمل.. وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا.. فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة.. أو علم الفلك.. أو علم الفضاء.. إلى آخر هذا، ولكنه يبدأ من أول سورة بعد الفاتحة وهى سورة البقرة بالآية الكريمة.

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (البقرة) أى إنه كتاب هدى.

---

(١) الشيخ محمد متولى الشعراوى – معجزة القرآن ١٩٨١ ص ٨٩.

ولكن الله سبحانه وتعالى وضع فى كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يحاربون هذا الدين حتى يوم القيامة.. ومن هنا فإن آيات الكون الكبرى التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم.. والتى نعرف بعضها - وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن - أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفحم بها أولئك الذين يقولون: انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم.. وأن يقول لنا: إن العلم الذى يحاول بعض المضلين أن يتخذوه إلها جديدًا هو من علمى ومن خلقى.. فلا تعبدوا المخلوق وتتركوا الخالق، ولكن هذا لا يجعلنا نأخذ العلم دليلا على صحة القرآن، بل على العكس فإن القرآن هو الدليل على صحة أو عدم صحة العلم، فالعلم الذى يتناقض مع القرآن الكريم كاذب وغير صحيح.

والقرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا تغيير ولا تبديل.. ومن هنا فإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظريات علمية كاذبة.. وما أكثرها. تجعل موقف المفسر فى حرج عندما يثبت كذب هذه النظرية.. فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل فى كلام الله، ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان وننتظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم، ولا نأخذ حديثا براقا يكون مجرد فرض.. وليس نظرية علمية، ونسرع ونربطه بكلام الله.. وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرا فى حق القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض العلمى؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد فصل القرآن الكريم على علم إلهى يقينى علاوة على هدف التنزيل من الهدى والرحمة كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (الأعراف: ٥٢)

ويمكن إجمال حجج المانعين من التفسير العلمى كما يدعى البعض فيما يأتى:

أولا: أن القرآن كتاب هداية؛ وأن الله لم ينزله ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.

ثانيا: أن التفسير العلمى للقرآن يعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأى الأخير.

ثالثا: أن التفسير العلمى للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذى يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم.

رابعًا: أن هناك دليلا واضحا من القرآن على أن القرآن ليس كتابا يريد الله به شرح حقائق الكون، وهذا الدليل هو ما روى عن معاذ أنه قال: «يا رسول الله إن اليهود تسألنا ويكثرون

مسألتنا عن الأهلة. فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوى ويستدير ثم ينقص حيث يعود كما كان» فأنزل الله هذه الآية:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ (البقرة: ١٨٩)

وهذه الحجج غير كافية لرفض التفسير العلمى للقرآن.

فأولا: إن كون القرآن كتاب هداية فهو أيضا مفصل على علم: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (الأعراف: ٥٢) ولقد فصل القرآن الرد عن الأهلة ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ (البقرة) بآيات أخرى علمية تدل على أن الأهلة تنشأ من حركة القمر فى منازل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٥) وبأن الأهلة – كما تشير هذه الآية ناشئة من فلك القمر الذى يسبح فيه حول الأرض ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠) ولا يمنع أن ترد فى القرآن الكريم إشارات علمية يوضحها التعمق فى العلم الحديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار وسائر الظواهر الكونية الهامة كالحد الأقصى للسرعة وبداية الكون ونهايته وعمر الكون، كما تحدث عن الإنسان والحيوان والنبات. ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافيا لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا إحدى الطرق التى سلكها لهداية الناس.

ثانيا: أما تعليق الحقائق التى يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض. وأول من رفضه هم المتحمسون للتفسير العلمى ومنهم مؤلف هذا الكتاب لأننى لا أربط القرآن إلا بالحقائق، بل لقد استخدمت نص آية السجدة ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ (السجدة) فى إثبات صحة أهم نظرية علمية فى القرن العشرين والتى تسمى النسبية الخاصة لأينشتين.

ثالثا: أما القول بأن هذا اللون من التفسير يتضمن التـأويل المستمر والتحمل والتكلف فإن التأويل بلا داع مرفوض. وقد اشترط القائمون بالتفسير العلمى للقرآن شروطا من بينها ألا يعدل المفسر عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن التى تبرر ذلك.

رابعا: أما الاستدلال بما ورد فى سبب نزول الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ (البقرة: ١٨٩) فهو بحاجة إلى أن يثبت، وإلا فهو معارض بما رواه الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى هذه الآية. قالوا: سألوا النبى ﷺ لم جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون، هى مواقيت للناس والحج، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولهدى نسكهم ومحل دينهم فى أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه. وروى عن الربيع وابن جريج مثل ذلك، ففى هذه الروايات التى ساقها الطبرى أن السؤال هو: لم جعلت هذه الأهلة؟ وليس السؤال ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوى ويستدير ثم ينقص. ولذلك فإنه لا دليل فى الآية على إبعاد التفسير العلمى[1] بل إن القرآن أجاب عن سؤال الأهلة فى آيات أخرى.

والحقيقة التى يعرف رجال العلوم الكونية معناها وحدودها صادقة ولا تبطل ولكن قد تزداد مع الزمن وجهود العلماء المتتابعة تفصيلا ووضوحا.. وذلك بسبب طبيعة العلم المرنة والنامية الناجمة عن فضول العلماء الذى لا يحد، ودأبهم الذى لا ينقطع فى السعى وراء المعرفة، وعن تراكم نتائج بحوثهم واتفاق إحاطتهم بتلك النتائج. وعلى الأخص فى هذا العصر. وعن تقدم البحوث التى تفتح على الدوام آفاقا للعلماء لم يكونوا من قبل بالغيها، ثم عن التفاعل بين حصائل أفرع العلوم المختلفة، وتورع العلماء الصادقين عن خطيئة التعصب والجمود. والنمو المطرد والمرونة الدائمة للعلوم هما سر حيويتها وتقدمها. وليس من الصواب اعتبارهما دليلا على قصورها وبطلانها. إن العلوم غير مقدسة، والعلماء غير معصومين من الخطأ، ولكن العلوم ليست وهما أو خيالا أو بنيانا ركيكا. إذن فما هو سر القول بأن العلوم الطبيعية ليست أهلا لأن تنضم فى تواضع غير متكلف إلى العلوم الخادمة لتفسير القرآن الكريم؟. أعتقد أن الاعتراض ناشئ عن مصدرين أولهما عدم فهم طبيعة العلوم واتخاذ أعظم مزاياها منقصة فيها. وثانيهما هو خطأ التطبيق.. وحرى بأهل العلم ألا يسهموا فى خدمة تفسير القرآن إلا بما تطمئن إليه عقولهم ونفوسهم ويتفق مع الفهم الصحيح للقرآن الكريم ولعلومهم[2].

ولهذا كانت الأغلبية فى العصر الحديث هى فى اتجاه وسط يرى أن القرآن الكريم كتاب هداية بالدرجة الأولى، ولكنه مع ذلك حوى عددًا من الأدلة العلمية والمعجزات الكونية. وقد

---

(١) الشيخ محمد الأمين ولد الشيخ: بحث التفسير العلمى للقرآن بين المجيزين والمانعين المؤتمر العلمى الأول للإعجاز العلمى للقرآن والسنة سنة ١٩٨٧. ص ٦٩ وما بعدها، إسلام أباد بباكستان.

(٢) أ. د. عبد الحافظ حلمى: مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ٤ عام ١٩٨٢ ص ٧٦.

أمرنا الله أن نخاطب الناس بلسانهم وباللغة التى يفهمونها، ومن هذا البيان شرح هذه الآيات وبيان ما تشير إليه أو ما اشتملت عليه من إعجاز علمى أو كونى. يقول الإمام محمد مصطفى المراغى: «يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها». ويقول فى مكان آخر: «لست أريد أن أقول إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا وبالأسلوب التعليمى المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته ليبلغ درجة الكمال جسدا وروحا. وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها».

وبهذا المسلك المعتدل استطاع الشيخ المراغى أن يوفق بين القرآن والعلم فى تفسيره لبعض سور القرآن الكريم تفسيرا دينيا توجيهيا يحمل أصول التوجيه والإصلاح لنظم الحياة وإدارتها، فكان يخاطب بتفسيره الملوك والحكام، ويدعوهم إلى العدل والشورى والمساواة، ويحثهم على مكارم الأخلاق والعمل النافع المفيد، ومن هذه المدرسة عدد من العلماء فى العصر الحديث، منهم الشيخ محمود شلتوت والدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ محمد المدنى والدكتور محمد البهى والشهيد حسن البنا والشهيد سيد قطب وغيرهم فى أنحاء العالم الإسلامى، يحملون رسالة القرآن ودعوته إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو لون من ألوان حفظ الله لكتابه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)

وعلى هذا فإن أهم ما يجب أن يتميز به التفسير فى العصر الحديث أن يجمع بين الدعامتين اللتين يقوم عليهما الإسلام، الدعامة الأولى: هى العقل والعلم، والدعامة الثانية الهدى والرشد، وهما الدعامتان اللتان أوضحهما القرآن فى آياته الدينية وآياته الكونية. ومن المعروف أن الأديان السماوية غير الإسلام تكتفى بالدعامة الثانية وهى الهدى والرشد بينما تكتفى الدول المتقدمة اقتصاديا وعسكريا ورواد الحضارة الحديثة بالدعامة الأولى وهى العقل والعلم. ولهذا يقوم الصراع بينهما؛ ولهذا فأمام المسلمين فرصة تاريخية فى الوقت الحاضر لإظهار القرآن الكريم الوحى الإلهى المنزل والدستور الملزم لجميع البشر، وذلك بكماله وإعجازه وربطه الحكيم بين الدعامتين.. ودور المفسرين هو توضيح ذلك.

يقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١٤﴾ ﴾ (آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قد مَنَّ علينا فى آيات كثيرة من القرآن بأنه سخر الليل والنهار والشمس والقمر وسخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء، والامتنان الإلهى بهذا معناه دعوة صريحة للمسلمين أن يستجيبوا إلى التوجيه الإلهى فيسخروا كل ذلك بالعلم والمعرفة، ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة فى نفع الإنسانية، ولكن العلم والمعرفة فى الإسلام لا يقتصران على الجانب المادى، إن العلم المادى، علم تسخير الكون، يحث عليه الإسلام ولكنه لا يقف عنده، فغاية المسلم تتمثل فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ (النجم) وقوله سبحانه مؤكدا إسلامية المعرفة والعلم بقوله سبحانه:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾

(العلق)

وإن ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ يوجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى، العلم عبادة، وإذا كنا – كمسلمين – مدعوين إلى تسخير الكون مأمورين بتسخيره فى سبيل الله وتذليله رجاء الله فنحن بهذا متجهون إلى الله غير ناظرين إلى هذا التسخير وإنما إلى الكون، وبذلك يكون التسخير نفسه عبادة.

فالسيطرة على الطبيعة فى الوضع الصحيح هجرة إلى الله، إنها قراءة باسمه، فهى داخلة فى نطاق ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ وإذا قرأت باسم ربك فأنت عابد فى أعمالك وفى أقوالك، والعلوم فى الإسلام على الوضع الصحيح إذن عبادة حتى فى الجانب المادى منه، ولا يتأتى أن يقف الإسلام عقبة فى سبيل العلم أو أن يتعارض الإسلام مع العلم الحديث.

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم إنما نشأت فى أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التى حثت الإنسانية على التعلم، والتى ولد المنهج العلمى الذى يسمونه المنهج الحديث بين ربوعها، والتى أنشأت على أساس هذا المنهج حضارة لا تزال تكشف كل يوم عن المثير من أبحاثها العميقة[1].

---

(١) الدكتور عبد الحليم محمود، تفسير سورة آل عمران، طبعة ١٩٧٨ ص ٩ وما بعدها.

آراء المجيزين للتفسير العلمى للقرآن الكريم:

وهذا الفريق من علماء المسلمين ومنهم مؤلف هذا الكتاب يجيز التفسير العلمى للقرآن، ويدعو إليه، ويرى فيه فتحا جديدا وتجديدا فى طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى دين الله. وقد انتشر هذا النوع من التفسير واتسع القول فى احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما هو كائن وما سيكون، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية والاعتقادية والعلمية أساسيات علوم الدنيا على اختلاف أنواعها وتعدد ألوانها.

وكان الإمام الغزالى رحمه الله، أكثر من استوفى بيان هذا اللون من تفسير القرآن الكريم، وأهم من أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية، وقد أوضح أفكاره وآراءه فى هذا الموضوع فى الجزء الأول من كتابه الشهير «إحياء علوم الدين».

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطى ينحو منحى الإمام الغزالى فى القول بالتفسير العلمى، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع فى كتابه «الإتقان» وفى كتابه «الإكليل فى استنباط التنزيل» مستندا إلى قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وقوله سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩).

فلابد للمفسرين فى عصرنا من الاستعانة بعلماء الكونيات ليوفقوا بين الحقائق الكونية المكتشفة وبين النص القرآنى المشير إلى هذه الاكتشافات، لأن هذه الحقائق كانت موجودة فى القرآن مجملة، وليست هذه المسائل من قبيل العقائد والعبادات والأحكام، ولهذا يجوز أن تفهم وتؤمن الأجيال القديمة بالمعنى الإجمالى ويكتفوا به. وهذا لا يسبب أى نقيصة للقرآن ولا لقدامى المفسرين من الأمة الذين لم يكن فى استطاعتهم أن يعرفوا هذه المسائل العلمية بالتفصيل. بل يكون دليلا آخر للإعجاز القرآنى؛ لأن القرآن يعلن بصراحة أنه يحتوى على بعض الحقائق التى لم تظهر حقيقتها فى وقت النزول ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ (يونس: ٣٩) والجملة الأخيرة من الآية صريحة فى أن القرآن يحتوى على بعض الحقائق التى ستتضح بمرور الزمان[1].

والواقع أن الامتناع عن الأخذ من باب العلوم الكونية ومكتشفاتها الحديثة بما يدعم تفسير آيات القرآن هو منع لخير فتح بابًا لخدمة القرآن والإسلام، مع التأكيد على أن الإفراط

---

(١) الدكتور سعاد بلورم – أبحاث مؤتمر الإعجاز العلمى للقرآن باكستان ١٩٨٧.

والتفريط والإسراف فى اللجوء إلى العلوم الكونية وفروضها ونظرياتها حتى ولو كانت لا تدخل فى نطاق الإشارات العلمية القرآنية - هو تشويه للقرآن وإظهاره بمظهر الضعيف.

فخير الآراء الذى يجيز اللجوء إلى الراسخين فى العلوم الكونية من المسلمين لبيان الحقائق والمكتشفات العلمية التى تخدم فى فهم الإشارات العلمية فى القرآن الكريم فهما عصريا دقيقا دون شطط أو مغالاة.

والمفسرون فى كل عصر هم حملة الدعوة إلى الإسلام. وفى بدء الدعوة إلى الإسلام كان رسول الله ﷺ هو داعى الله.. وبعد أن انتقل إلى رحاب بارئه أصبحت الدعوة مهمة علماء الدين، وعلى رأسهم المفسرون. ذلك أن ختم رسالات السماء إلى الأرض برسالة محمد قد أنهى طور النبوات والرسالات المتجددة، فأصبحت الدعوة إلى دين الله الواحد، دين الإسلام، هى دعوة علماء الدين الإسلامى وعلى رأسهم المفسرون.

وفى العصر الحديث لا يمكن أن يتجاهل أى مفسر معاصر البحوث والدراسات والكتب التى كتبت فى الإشارات العلمية فى القرآن الكريم. والأسئلة التى يثيرها المسلمون وغير المسلمين بخصوص هذه الإشارات، فهو لابد أن يلم بهذه الموضوعات المتعددة ويدلى بدلوه. ويحاول الإجابة عليها. حتى يأتى تفسيره حيويا يواجه التطورات المستمرة فى العلوم الدنيوية والمجتمعات الإنسانية.

يقول المستشرقون.. إن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم!.. ونحن نؤكد لهم أن العلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء فى القرآن. ويقول المستشار مدحت حافظ إبراهيم:

إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون.. أو مع خلق الكون، ولكن هذا التصادم المزعوم يأتى عن حقيقة قرآنية أسىء تفسيرها.. لتبدو فى غير معناها الحقيقى.. وكما قلت أعود فأكرر.. إننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم.. بل إن العلم هو الذى يجب أن يُثْبَتَ.. ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم.. ذلك أن القرآن أصدق من أى علم من علوم الدنيا، ومن أى علم فى هذا العالم.. لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر، وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى.. ومن هنا كما قلت — فإننى لا أحاول أن أثبت القرآن بالعلم الأرضى ولكننى أرد على الذين يقولون إن هناك تناقضا بين حقائق الكون الأساسية.. وكلام الله سبحانه وتعالى:

ويرى بعض العلماء المسلمين بحق أنه يجب على المفسرين فى المستقبل الاستعانة بأحدث المعلومات ليقدموا الترجمة الصحيحة للآيات العلمية.

«فالآيات الكريمة التى وردت بها الإشارات العلمية إذا كان يمكن لنا أن نفهم بعضها بسهولة فإن البعض الآخر لا يمكن إدراكه بعمق إلا إذا كان المرء محيطا بمعارف علمية لازمة

للفهم الحقيقى. وذلك يعنى أن إنسان القرون السالفة لم يكن باستطاعته إلا أن يتبين فى هذه الآيات المعنى الظاهرى الذى قاده أحيانا إلى استنتاج تفسيرات غير دقيقة بسبب عدم كفاية معرفته العلمية فى الماضى. وبهذا فإن عدم الدقة فى الترجمة والتعليقات الخاطئة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار حتى يتم تصحيحها فى المستقبل بالنسبة لترجمات الآيات العلمية فى القرآن، وخاصة أن كل المترجمين المحدثين يستعملون – فى أحيان كثيرة ودون روح نقدية– كافة تفسيرات المعلقين القدماء. وهناك الآن من يحتاطون لتفسيراتهم الجديدة برأى العلماء المتخصصين فى الآيات العلمية كما هو الحال فى تفسير «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم». والتفسير العلمى للآيات الكونية. اتجاه جديد محمود تزعمه علماء أجلاء متخصصون فى العلوم الكونية مثل المرحوم الدكتور محمد الغمراوى والأستاذ حنفى أحمد والمؤلف(**) وغيرهم بعد أن وصل العلم حديثا إلى كشف الكثير من الأسرار والسنن الكونية مما لم يكن معروفا فى العصور الماضية، وتشجع العلماء المتخصصون المؤمنون من منطلق الحماسة الدينية والغيرة الإسلامية لإبراز الإعجاز العلمى للقرآن والتحقيق والتفسير العلمى للآيات الكونية بلغة العصر الحديث الذى لا يؤمن بغير لغة العلم وسيلة للتخاطب، فضلا عن الاقتناع. وتم عقد المؤتمرات لهذا الغرض وإنشاء هيئة للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية فى كل من السعودية ومصر لوضع المنهج والضوابط لهذا التفسير وتوظيف هذه الظاهرة فى مجال نشر الدعوة الإسلامية، وأصبح من الضرورى وقد قويت الصلة بين العلم والدين أن يتعاون فى تفسير الآيات الكونية العلماء الكونيون والشرعيون، ولهذا أنادى دائما بإنشاء مركز لبحوث الإعجاز العلمى للقرآن بمجمع البحوث الإسلامية وكذلك إنشاء قسم لهذا التخصص فى كليات جامعة الأزهر بعد أن استجاب لندائى مشكورا الإمام الأكبر سيد طنطاوى ومعالى أ.د. حمدى زقزوق فى الموافقة على تشكيل لجنة للإعجاز العلمى للقرآن بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والتى أتشرف بعضويتها وبمهمتى مقررا لها.

ونحن هنا لا ننكر مجهود المفسرين القدماء الذين فسروا الآيات الكونية على مقتضى أصول اللغة وغريبها، وعلى قدر ما توافر لديهم من طرق العلم وأساليب البحث فى الكائنات، ونظرا لعدم تقدم العلم فى عصورهم فقد استخدموا التأويل المجازى فى تفسير الآيات الكونية وأخذوا بوجه دون آخر من وجوه المعنى اللغوى للألفاظ، واستعانوا للأسف بالشائعات الخرافية الظنية عن الكون المادى مما لم يثبت بالدليل القاطع ورواه بعض العلماء المتأثرين

(**) راجع كتب المؤلف فى هذا المجال بدار الفكر العربى وهيئة الكتاب ودار المعارف.

بالإسرائيليات مثل كعب الأحبار. ولقد كان لهذه السموم أثر سيىء لم يتنبه إليه علماؤنا وانزلقوا فيها بحسن النية. وعلى كل حال فالمفسرون بشر يؤخذ من كلامهم ويرد ولا يصح أبدا التمسك بكلمة التراث بل يجب تنقيته مما علق به من خرافات.

والآيات الكونية فى القرآن الكريم تتحدث عن مظاهر قدرة الله، أى فى السماء والأرض وفى الإنسان والنبات والحيوان لتلفت النظر إلى التدبر فى هذه الآيات حتى يصل العقل البشرى من خلالها إلى الإيمان بوجود الله وقدرته ووحدانيته، هذه الآيات تتحدث عن سنن الله الكونية التى يراها الإنسان العادى فيأخذ منها عبرة عامة، ولكنها أيضا تحتوى على إشارات علمية تظهر كلما تقدم العلم وكشف شيئا من أسرار هذا الكون فتحتاج إلى الراسخين فى العلم لتفسيرها لأنها رموز الكون.

لقد كانت دعوة القرآن قائمة على تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى، وسيطرة التبعية العمياء، وتربيته تربية إسلامية تقوم على حرية الفكر واستقلال الإرادة وتحرير الإنسان من ظلام الجهل وطاعة الأهواء والانقياد الأعمى، وتحرير العقل البشرى من الأوهام والخرافات، وإطلاقه للنظر فى الكون نظرة عامة والتدبر فى آيات القرآن الكريم.

ولقد جاء الحديث فى القرآن الكريم عن الكون كما جاء عن الشرائع والقصص مناسبا لجميع الناس على اختلاف درجات عقولهم وأفهامهم وزمانهم فكان ولا يزال وسيظل للناس جميعا من ظاهر الآيات القرآنية معان واضحة سهلة تصور لهم صنعة الخالق كما يشاهدونها، وتبين لهم ما فيها من آيات القدرة العظيمة ودلائل العلم الواسع مع التوجيه الحكيم إلى غايات محدودة ورحمة مقصودة لكى يتعرف الجميع دون عناء على خالق الكون سبحانه وتعالى وعلى كمال صفاته وأفعاله.

وبالإضافة إلى المعانى الظاهرة فى آيات القرآن الكريم، فإن المتأملين من أهل العلم فى هذه الآيات يرون معانى أخرى دقيقة تنطوى على أصول وجوامع مع العلم الواسع الدقيق ورموز الكون بأسلوب عميق، لذلك نرى الكثير من آيات القرآن تنتهى بمثل قوله تعالى:

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (الأنعام)..

أو ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الأنعام)..

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يونس).

والقرآن الكريم وصفه الله بالعلم بمفهومه الشامل كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه)

فالعلم هنا هو علوم القرآن كما هى معروفة الآن فى الكليات الشرعية وأيضا العلوم الكونية كما هى معروفة فى الكليات الأخرى العملية والتكنولوجية، وليس هذا فحسب ولكن علينا أن نأخذ شعار الاستزادة من العلم دائما ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ وهذه دعوة قرآنية للعلوم كلها دون ذكر التفاصيل والجزئيات وتركها لاجتهاد الإنسان.

فالقرآن الكريم أجل وأعظم من أن يكون كتابا فى العلوم وكما يقول المستشار مدحت حافظ إبراهيم[1]: «إعجاب المسلمين الصادق بالقرآن الكريم إعجاب لا يفوقه إعجاب وهم فى ذلك محقون الحق كله بيد أن إعجابهم هذا قد جعل بعضهم يتصور أن علوم الدنيا كلها ينبغى أن تكون متضمنة فيه، ولذلك فهم ينادون بضرورة استخراج العلوم من القرآن».

ولكن القرآن يتعرض لقضايا كونية أساسية بإيجاز بليغ يوقد جذوة الفكر وطلب العلم عند الإنسان، ويزيل الغشاوة عن الأبصار والبصائر ويحطم الأقفال عن الأفئدة والقلوب وهذا فى حد ذاته هبة إلهية لا تخبو ولا حدود لها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور كما فى قوله تعالى:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥ – ١٦)

وتعلم العلوم الكونية ليس من مهام الرسالة السماوية ولكن الهدف من الإشارة إليها هو توجيه الإنسان بوجود خالق مبدع لكل الكائنات ليصل الإنسان بالكون، ويصل الوحى بالوجود فى إطار منهج التوجيه الإسلامى للعلم والمعرفة كما سنوضح فى هذا الكتاب لنقرأ باسم الله القراءتين الدينية والكونية معا كما فى قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ (العلق)

---

(١) الإشارات العلمية فى القرآن الكريم، مكتبة غريب: ١٩٩٣

وقوله تعالى لتأكيد الناحيتين:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٢)

ولقد قال الإمام الغزالى رحمه الله: إن لألفاظ القرآن الكريم معانى ظاهرة يفهمها عامة الناس وخواصهم وأخرى باطنة (دقيقة) لا يفهمها إلا أهل البحث والعلم كما فى قول الرسول الكريم.

«إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا».

ويشير القرآن الكريم إلى أن أولى العلم المتخصصين هم الذين يدركون عمق الآيات الكونية كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(الحج : ٥٤)

وقوله تعالى:

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (العنكبوت)

وقوله سبحانه:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ (آل عمران: ٧)

ولقد أوصى القرآن الكريم غير المتخصصين بعدم الدخول فى التفاصيل العلمية، ويعطى الله الجواب القرآنى بما يحتمله عقل السائل، فمثلا حينما سأل معاذ بن جبل رسول الله ﷺ عن الأهلة وتغير شكلها ولم يكن لدى الرسول علم بأسباب هذه التغير لأن علم الفلك ليس من مهمته ﷺ نزل الرد فى قوله تعالى:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ (البقرة: ١٨٩)

فالرد هنا مبسط دون الدخول فى التفاصيل، وكما يقول الدكتور عبد المنعم النمر رحمه الله: إن سؤال الفرد عن الدوائر الإليكترونية الموجودة فى التليفزيون مضيعة للوقت لأن عقله لا يستوعبها. ويرى أن تفسير الآيات الكونية من اختصاص أهل العلم.

ومما لا شك فيه أن العرب لم تكن عندهم قدرة لتفسير هذه الآيات العلمية الكونية وقت نزول القرآن، ولقد فهموها إجمالا واكتفى علماء التفسير منهم بالنواحى البلاغية والنحوية، وربما أضافوا بعض الخرافات والإسرائيليات فى تفسيرها.

ولكننا الآن نعيش عصر العلم ولابد من الاجتهاد فى تفسير الآيات الكونية من جديد بتعاون علماء الشريعة والكونيات، ولقد تم الاتفاق بينهما فى ندوة أقيمت فى الجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن الكريم (التى تشرفت والحمد لله بالاشتراك فى تأسيسها ورئاستها) على وضع المنهج التالى لتفسير الآيات الكونية سوف نستعرضه فى الفصل الخامس.

obeikandl.com